حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

٧

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أيمن فؤاد سيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

مجلة سنوية محكمة تعنى بالتاريخ الإسلامي والوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط
بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

كل الحقوق محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع
2735-3923

رقم الإيداع بدار الكتب
2013/18750

الترقيم الإلكتروني
2735-4725

موقع المجلة على بنك المعرفة:
hsew.journals.ekb.eg

٢٠١٩م

قطعة ٤ بلوك ٧ – المنطقة التاسعة – شارع د. رؤوف عباس- مدينة نصر – القاهرة
تليفون: ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ – ٢٧٤٢٨٢٩١ – ٢٧٤٢٨٢٩٦ – فاكس ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميَّ والوسيط

مَجلة عِلميَّة مُحَكَّمة

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

العدد السابع

القاهرة

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رئيس مجلس الإدارة أ.د. أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير: أ.د. حسين سيد عبدالله مراد

مديـر التحرير: د. محمد فوزي رحيل

أ.د. صلاح الدين علي عاشور

أ.د. عبير زكريا سليمان

أ.د. نهلة أنيس مصطفى

د. عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم

الهيئة الاستشارية الدولية

أ.د. إبراهيم عبدالمنعم سلامة (مصر)

أ.د. اسحق تاوضروس عبيد (مصر)

أ.د. حاتم عبدالرحمن الطحاوي (مصر)

أ.د. عبدالقادر بوباية (الجزائر)

أ.د. عبدالله بن سعيد الغامدي(السعودية)

أ.د. عبدالهادي ناصر العجمي (الكويت)

أ.د. عفاف سيد صبرة (مصر)

أ.د. فتحي عبدالفتاح أبو سيف (مصر)

ا.د. قاسم حسن السامرائي (العراق)

ا.د. لطفي بن ميلاد (تونس)

أ.د. محمد أحمد بديوي (مصر)

أ.د. محمد عيسي الحريري (مصر)

أ.د. محمد الناصر صديقي (تونس)

Prof. Dr. Albrecht Fuess (Germany)

Prof. Dr. Sylvie Denoix (France)

Prof. Dr. Tetsuya Ohtoshi (Japan)

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر بالحولية

- ترحب الحولية بنشر البحوث العلمية المبتكرة في التاريخ الإسلامي والوسيط باللغتين العربية والإنجليزية.
- يكون البحث في حدود ٣٥ صفحة، بما في ذلك الحواشي اللازمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع.
- ترسل البحوث على موقع الحولية على بنك المعرفة ولن يلتفت إلى الأبحاث التي ترسل عن طريق آخر.
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة (CV)، وملخصًا للبحث باللغة العربية ولغة أجنبية في حدود (١٥٠) كلمة لكل منهما والكلمات المفتاحية.
- يقدم الباحث إقرارًا كتابيًّا بأن البحث لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها، وعدم الدفع به إلى النشر في جهات أخرى[1] بعد موافقة الحولية على نشره.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بأصولها الصالحة للطباعة، وفي حال رغبة الباحث نشرها ملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- تتمتع الحولية بحق الملكية الفكرية للبحوث التي تنشرها، ويمكن للباحث إعادة نشر بحثه في جهة أخرى[1] بعد مرور خمس سنوات على النشر بالحولية، وبموجب أذن كتابي من رئيس تحرير الحولية.

- لا تقبل الحولية البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.
- توضع الهوامش مرتبة بطريقة متسلسلة في أسفل البحث.
- تخضع البحوث قبل النشر للتحكيم العلمي على نحو سري (معمي).
- يتم تقويم البحث وفقًا للعناصر التالية:
  - أن يكون البحث مبتكرًا، ومضمونه متكامل علميًّا.
  - وضوح المنهج، وملائمته لموضوع البحث.
  - رعاية الإخراج العلمي وتوزيع عناصر البحث.
  - سلامة اللغة ووضوح الصياغات والعبارات.
  - كفاءة المراجع وصحة التوثيق، وسلامة الهوامش، ودقة استخدام المصادر والمراجع.
- البحوث التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، حتى وإن كانت طفيفة، وفي حال ما إذا رأت الحولية عدم نشر البحث، تخطر صاحبه بالاعتذار عن عدم النشر مع بيان الأسباب.

مُقَدِّمَة

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالتعاون مع أسرة سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية أن يقدما لكل المهتمين بحقل التاريخ الإسلامي والوسيط الحولية رقم (٧) لعام ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

وهذا المجلد من الحولية يتضمن خمسة بحوث متميزة من البحوث المُحَكّمة، تتناول عددًا من موضوعات التاريخ الاجتماعي الإسلامي والوسيط، أولها تناول سكان وأسواق دَبَاعاصمة عُمان في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، وعرض الثاني لأهمية كتب المناقب في دراسة التاريخ للمغرب الأقصىٰ، أما البحث الثالث فأكد تأثير الحرب علىٰ البنية الاجتماعية في بلاد السودان الغربي. والبحث الرابع تناول طائفة المؤذنين في مصر في العصر المملوكي. وجاء البحث الأخير عن الدير اللاتيني (البندكيتي) في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

وبعد... نشكر إسهامات الباحثين راجين أن نستفيد جميعًا من جهدهم وفكرهم، وأن يكون الجهد قد أضاف إلىٰ المكتبة التاريخية جديدًا وأن تحوز هذه الأبحاث رضاء الباحثين والقراء.

ونأمل أن يساهم الباحثون المتخصصون ببحوثهم في أعداد الحولية القادمة، وأن نتلقىٰ الاقتراحات حول ما يضيف إلىٰ الحولية الجديدة في حقل البحث التاريخي الإسلامي والوسيط.

واللهُ ثم الوطن العزيز من وراء القصد،،،

أسرة التحرير

المحتويات

١- سُكان وأسواق دَبَا فرضة عُمان والعرب المشهورة في عصري الجاهلية وصدر الإسلام ١١-٥٠

إبراهيم سلامة عبدالمنعم أبو العلا

٢- كتب المناقب مصدرا لدراسة الدور المجتمعي لمتصوفة المغرب الأقصىٰ في عصر الموحدين ..... ٥١ - ٨٦

حسين عبدالله مراد

٣- الحرب والبنية الاجتماعية في السودان الغربي ..... ٨٧ - ١٣١

بطل شعبان محمد

٤- طائفة المؤذنين في العصر المملوكي ..... ١٣٣ - ١٧٤

سماح عبدالمنعم السلاوي

٥- الدير اللاتيني (البندكيتي) في جبل طابور علىٰ عصر الحروب الصليبية ..... ١٧٥ - ٣٠٠

حجازي عبدالمنعم سليمان

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط ٧ (٢٠١٩)، ٨٧ - ١٣١

الحرب والبنية الاجتماعية في السودان الغربي (٧٢٦-١٠٠٠هـ/ ١٣٢٥-١٥٩١م)

بطل شعبان محمد غرياني (١)

ملخص:

موضوع هذا البحث هو "الحرب والبنية الاجتماعية في السودان الغربي ٧٢٦- ١٠٠٠هـ/ ١٣٢٥-١٥٩١م" وهو موضوع جدير بالدراسة إذ يناقش آثار الحرب علىٰ عناصر مجتمع السودان الغربي في العصر الإسلامي (منطقة غرب أفريقيا حاليًا)، من خلال دراسة أثر الحرب علىٰ تماسك القبيلة السودانية، ثم أثر الحرب في خلخلة البنية الديموغرافية، وبعدها يتطرق البحث لمعالجة أثر الحرب فيما شهده المجتمع السوداني من حراكٍ طبقي، وذلك بدراسة أثر الحرب في إيجاد بعض الفوارق الطبقية، ثم أثرها في ظهور شريحة أسرىٰ الحرب، وما استتبعه من آثار علىٰ صعيد الحراك الطبقي، ثم يتتبع البحث الآثار التي خلفتها الحرب علىٰ الأسرة السودانية، من خلال دراسة آثار تواتر أخبار الحرب ومردوده علىٰ الأسرة، ثم أثر

(١) مدرس التاريخ الإسلامي، كلية الدراسات الأفريقية العليا- جامعة القاهرة

الحرب على المرأة، والطفل، ثم نرصد بعض المحن والمشكلات التي أصابت المجتمع بسبب الحرب، ومنها محن الحصار العسكري وآثاره على السكان، ومحنة ترويع السكان والتنكيل بهم، ونهب الأموال الذي أعقب بعض الحروب. وبالتالي فإن الحرب ألقت بظلالها على واقع المجتمع السوداني، وتركت آثارًا سلبية عميقة رغم ما حققته من مكاسب سياسية واقتصادية.

Abstract:

The topic of this research is "War and the Social Structure in Western Sudan 726-1000 AH / 1325-1591 AD", which is a topic worthy of study as it discusses the effects of war on the elements of Western Sudan society in the Islamic era (West Africa region today), by studying the impact of war on the cohesion of the tribe. Then the study deals with the impact of the war among Sudanese society in terms of class mobility by studying the impact of the war in creating some class differences, then its effect on the emergence of prisoners of war, and the consequences it entailed, then he traces the effects of the war on the Sudanese family, by studying the effects of the frequency of war and its repercussions on the family, then the impact of the war on women and children, then the local community, and some of the problems and problems that afflicted the war, some of which are the tribulations of the military siege and its effects on the population, and the ordeal of terrorizing the population and its wonderful, and that some wars are plundered. The frequent fighting in the war cast a shadow on the reality of Sudanese society, and left deep negative effects despite the political and economic gains it achieved.

مقدمة:

تعد آثار الحرب على البنية الاجتماعية الأكثر ضررًا، والأبلغ أثرًا، فالحرب عدوان على أمن المجتمعات، لما تسببه من أذى وأضرار وظلم وخسائر مادية وآلام نفسية. والحرب هي أكثر الأزمات التي تتسارع فيها الأحداث التاريخية والمواقف والمحن التي تمتد انعكاساتها إلى أجيال تلو الأخرى، ويشيع فيها فقدان الحياة والأمان والاستقرار أو التهديد بذلك الفقدان(٢).

وقد تعرض مجتمع السودان الغربي (غرب أفريقيا حاليًا) خلال فترة البحث -كغيره من المجتمعات التي تئن تحت وطأة الحروب المتوالية- من تغيرات هيكلية عميقة أثرت على بنيته الاجتماعية، وانعكست على مجمل أوضاعه الاجتماعية؛ ولهذا فسوف نتناول في هذه الدراسة آثار الحرب على عناصر المجتمع، من خلال دراسة أثر الحرب على تماسك القبيلة السودانية، ثم أثر الحرب في خلخلة البنية الديموغرافية، وبعدها يتطرق البحث لاستكشاف أثر الحرب فيما شهده المجتمع السوداني من حراكٍ طبقي، وذلك بدراسة أثر الحرب في إيجاد بعض الفوارق الطبقية، ثم أثرها في ظهور شريحة أسرى الحرب، وما استتبعه من آثار على صعيد الحراك الطبقي، ثم نتتبع الآثار التي خلفتها الحرب على الأسرة السودانية، من خلال دراسة آثار تواتر أخبار الحرب ومردوده على الأسرة، ثم أثر الحرب على المرأة، والطفل، كما يسعى هذا البحث لمناقشة بعض المحن والمشكلات التي أصابت المجتمع بسبب الحرب، ومنها محن الحصار العسكري وآثاره على السكان، ومحنة ترويع السكان والتنكيل بهم، ونهب الأموال الذي أعقب بعض الحروب.

---

(٢) بشير صالح الرشيدي: الحرب وسيكولوجية المجتمع – دراسات في آثار العدوان العراقي، مكتبة الإنماء الاجتماعي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ١٣، ١٤.

أولًا- تأثير الحرب على عناصر المجتمع:

تعد آثار الحرب على عناصر المجتمع السوداني واحدة من النتائج بالغة الأثر، فقد أحدثت الحرب تغيرات عانت منها البنية القبلية، وأثرت سلبًا على التماسك القبلي، بالإضافة إلى ما تركته من آثار أخرى تمثلت في خلخلة البنية الديموغرافية، بسبب ارتفاع أعداد ضحاياها نتيجة الغزوات المتعددة.

١- الحرب والتماسك القبلي:

أحدثت الحرب بعض الآثار الإيجابية أحيانًا على صعيد التماسك القبلي، فقد أدت الحرب إلى تحويل مملكة مالي من مجرد إمارة صغيرة للماندنجو إلى مملكة كبرى ضمت مجموعة واسعة ومتنوعة من الأعراق(٣). ونتيجة حروب سني علي (٨٦٩- ٨٩٨هـ/ ١٤٦٤- ١٤٩٣م) ضمت مملكة صنغي عددًا كبيرًا من الأعراق تحت قيادة سياسية موحدة، وأصبحت الشعوب التي سكنت جنوب وادي النيجر ضمن الشريحة السكانية للمملكة، وفضلًا عن هذا كان توسع جيش صنغي غربًا يعني ضم الكثير من الشعوب من غير الصنغي إلى الشريحة السكانية للمملكة أيضًا، وكانت تلك الإثنيات المختلفة في حاجة إلى قوة تحميها ضد كل من الطوارق والموشي، وأصبح يجمعها أحيانًا هدف واحد لرد اعتداءات الجيران(٤).

وهكذا جعلت الحرب من أبناء القبيلة الواحدة أكثر تماسكًا واتحادًا من أجل التوسع ثم مواجهة الأخطار المحدقة بالقبيلة، والدفاع عن ممتلكاتها

---

(3) Levtzion N: Islam In Africa To 1800 Merchants Chiefs And Saints P.478.

(4) Hunwick J: Songhay Borno and the Hausa States 1450-1600 in: Ade Ajayi J.F and Michael Crowder (Eds): History of West Africa New York 1985 P. 327.

في بعض الأحيان[٥]، وإن كان هذا الأمر ينطبق على القبائل الكبرى فقط، وهو الأمر الذي حدث عندما وحدت أسرة كيتا - التي حكمت مملكة مالي - قبائل الماندنجو للحرب ضد تسلط قبائل الصوصو، ولخوض حروب توسعية لصالح القبيلة والمملكة، لاسيما في عهدي منسا موسى (٧١٢-٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م)، ومنسا سليمان (٧٤٢-٧٦١هـ/ ١٣٤١-١٣٦٠م)، وحدث هذا أيضًا عندما وحد علي كولن قبائل الصنغي لكي يتخلصوا من سيطرة مملكة مالي، وتكون لهم السيادة على ممالك السودان الغربي[٦]، وتحقق لهم الاستقلال عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م[٧]، وبهذا أصبحت الممالك السودانية تتكاتف حول محارب شجاع يقف خلفه مجموعة عرقية موحدة تمثل العشيرة المهيمنة[٨].

غير أن الحرب أثرت سلبًا في أغلب الأحيان على تماسك القبيلة السودانية التي شكلت أساس البناء الاجتماعي لمجتمع السودان الغربي، فقد كانت القبائل عرضة للتفكك والتشرذم نتيجة للحرب التي أجبرت بعض القبائل على النزوح من مناطق تواجدها وترك أرضها التي كانت تمثل بالنسبة لأبناء القبيلة أهم مظاهر الولاء وكانت تلزمهم برباط قوي، وهي أمور كانت تفقد القبيلة أحد أهم عوامل تماسكها ووحدتها[٩].

---

(5) Van Dyke: Islamic Disk Reference، New York Academic Publishers، 1994، P. 37.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبطه ووضع حواشيه الأستاذ خليل شحادة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، ج٦، ص ٢٦٦؛ أحمد الأرواني: جواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوطة محفوظة بمعهد البحوث في العلوم الإنسانية، جامعة نيامي، النيجر، تحت رقم ١٠٦، ورقة ٢-أ.

(٧) السعيدي: ملوك السودان أهل سغي وقصصهم وأخبارهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، تحقيق هوداس وبنوا، مطبعة أنجي، باريس، ١٨٩٨، ص ٥، ٨، ٩.

(8) Cissoko، S: Histoire de l' Afrique Occidentale، Présence Africaine، Paris، 1966، P.1171.

(9) Ibid، P.1168.

لقد تسببت الحروب المستمرة في شتات بعض القبائل التي اضطرت نتيجة للحرب إلى الهجرة صعودًا وهبوطًا مع منحنى نهر النيجر، لاسيما تلك القبائل التي كانت تعمل في النشاطين الزراعي والرعوي، حيث أدت الحروب إلى تغير خريطة الثقل التجاري، وهو الأمر الذي دفع بعض القبائل التي اشتهرت إلى الهجرة، وقد حدث هذا الأمر بالنسبة لقبائل السُني، وقبائل الزرما أحد فروع قبائل الصنغي، وجماعات السوركو الصيادين، وحدث هذا أيضًا للقبائل الرحل مثل الطوارق والموشي التي كان لها سجل من العداءات مع الممالك السياسية في المنطقة، وهو ما دفع أبناء هذه القبائل إلى الهجرة، وتغيير مواطنها كلما اقتضت الضرورة(١٠).

كما اضطرت قبائل الماندنجو للنزوح نحو الغرب، أي في اتجاه المحيط الأطلسي، وانتشروا بجوار الساحل، نتيجة للضعف الشديد الذي أضحت عليه مملكة مالي خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وإغارات بعض القبائل عليها مثل الموشي والطوارق. أما في عصر مملكة صنغي فقد اضطرت قبائل السوننك بفعل الحروب المتكررة إلى الهجرة شرقًا على طول منحنى النيجر الأوسط في عصر الأساكي (٨٩٨-١٠٠٠هـ/ ١٤٩٣- ١٥٩١م)، وهو الأمر الذي حدث لقبائل الفولاني والطوارق أيضًا(١١).

وبالإضافة إلى اتجاه بعض القبائل إلى الهجرة كوسيلة للإفلات من الحرب وتبعاتها خلال الفترة ما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين/ الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين، كانت الهجرة أيضًا تضمن لهذه القبائل إيجاد متنفسٍ آخر لاكتساب ثروة جديدة من أرض أو ذهبٍ أو ملح،

(١٠) السعيدي: مصدر سابق، ص ٥، ٨.

(١١) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص ٢٦٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٨.

بعد أن فقدوا أملاكهم نتيجة لغزو غيرها من القبائل[١٢]، غير أن حركة الهجرة والتدافع التي ازدادت وتيرتها بسبب الحرب تسببت في صدام بعض القبائل ببعضها، مما أدىٰ إلىٰ ازدياد حركة هجرة القبائل، فقد أدىٰ توسع الفولاني والبربر القادمين من مملكة مالي إلىٰ هجرة قبائل الولوف باتجاه الجنوب بعد أن كانت تقطن المناطق الشمالية من نهر السنغال[١٣]. وهو ما يبرز أثر الحرب السلبي علىٰ تماسك القبيلة السودانية واستقرارها.

ولم تقف الضربة الموجعة التي وجهتها الحرب لتماسك القبيلة في السودان الغربي عند هذا الحد، فنتيجة لأن الحدود السياسية كانت تتباين وتتبدل بحسب قوة كل مملكة ومدىٰ مقدرتها علىٰ ضم الممالك والدويلات الأخرىٰ[١٤]، لم تعرف الشريحة السكانية لمجتمع السودان الغربي الثبات خلال فترة البحث، بل شهدت تغيرات متلاحقة، فهذه المملكة مثلًا كانت تضم أجزاء من ممتلكات مملكة أخرىٰ، ثم تفقد فجأة بعضًا من أملاكها، فضلًا عما كانت تفرزه الحروب من أسرىٰ كان يتم إقحامهم داخل النسيج المجتمعي، وهو ما ألقىٰ بآثاره علىٰ تماسك القبيلة السودانية، وأحدث خلخلة واضحة في النسيج الاجتماعي[١٥].

وإذا كانت القبيلة هي أساس بناء المجتمع السوداني، فإن أي ضرر كان يلحق بتماسكها ووحدتها كان طبيعيًا أن يتسبب في الضرر بالنسبة

---

(١٢) هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلىٰ للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٩.

(13) Florance M and Idown H: The peoples of Senegambia A Thousand Years of African History Ibadan University Press Ibadan 1967 P. 135.

(14) Megahed H: The Empires of Western Sudan "A Political Analysis" African Studies Issue 1 1972 P. 26.

(15) Hale T: Scribe Griots and Novelist Narrative Interpreters of the Songhay Empire University of Florida Press USA 1990 P. 23.

للكيانات السياسية نفسها، فقد ضعف الولاء والانتماء للمملكة نتيجة تعدد إثنياتها على نحو أثر على الاندماج الاجتماعي بين شرائح السكان، وهو أمر ثبت خطورته عند قدوم الغزو السعدي لمملكة صنغي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، فقد كان من الممكن أن يقف أبناء المملكة صفًا واحدًا في مواجهة هذا الغزو، لكن تسلط ملوكهم واتباعهم سياسات حربية أرهقت السكان حال دون هذا التوحد ضد الغزاة، وكان هذا إفرازًا مباشرًا لسلبيات الحرب على التماسك الاجتماعي والانتماء للكيانات السياسية(١٦). وإذا كانت الحرب قد أدت إلى هذه الحالة من التفكك القبلي، وضعف الانتماء للمملكة السودانية، فإن البنية الديموغرافية قد عانت من بعض الآثار الأخرى التي خلفتها الحرب.

٢ – الحرب وخلخلة البنية الديموغرافية:

لعل من أسوأ الآثار التي تتركها الحرب على المجتمعات، تلك الأعداد من القتلى الذين سقطوا ضحية للحرب، وهي مسألة أكد كلاوزفيتز ضرورة حدوثها، حيث يرى أن الذين يفضلون تحقيق أهدافهم من الحرب دون سفك كثير من الدماء، مخطئون في تصورهم، ذلك إنه إذا استخدم أحد طرفي الحرب القوة دون ندم، ودون أن يأبه لسفك الدماء، في الوقت الذي يحجم فيه الطرف الآخر عن فعل ذلك؛ فستكون اليد العليا للطرف الأول، ولهذا لابد من التسليم بالوحشية القاسية التي تقتضيها الحرب(١٧)، وما يتبعها من دمار بصورة لا يقبلها العقل، نتيجة عمق الجراح التي تحدثها الحرب في جسد المجتمع البشري(١٨).

---

(١٦) محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس ودولافوس، مطبعة إنجي، باريس، ١٩١٣، ص ١٥٢.

(١٧) عن الحرب، ترجمة سليم شاكر الإمامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٠٤.

(١٨) جون ستراتشي: حول منع الحرب، ترجمة عبد العزيز جاويد، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٥، ص٥، ٩.

ويعد استجلاء آثار الحرب على التركيبة الديموغرافية في مجتمع السودان الغربي بشكل إحصائي، أمرًا بعيد المنال، لاسيما أن أصحاب المصادر السودانية أغفلوا الحديث عن الأعداد التي لاقت حتفها أثناء المعارك، ولم تقدم سوى نذرًا يسيرًا من الإشارات حول هذه المسألة، وإن كانت صيغة الفخر التي استخدمتها هذه المصادر في إقدام أحد ملوك السودان على الانتقام من أعدائه في المعركة بأنه " حاربهم في ديارهم وقتل رجالهم "[١٩]، توحي بحجم الكارثة التي خلفتها الحرب على مستوى التركيبة السكانية، لكن دون أن تقدم إحصاءات دقيقة حول أعداد القتلى الذين لاقوا حتفهم أثناء المعارك.

وإذا كانت الإشارات الخاصة بإحصاء عدد الجند أو الأهالي الذين لقوا حتفهم خلال المعارك الحربية قليلة وغير معبرة عن الواقع، ولا تسهم في إعطاء صورة دقيقة عن أعداد الضحايا الذين راحوا ضحية للحروب، فإن إشارات أخرى كثيرة أكدت أثر الحرب في تكرار مظهر القتل وإزهاق الأرواح، منها ما حدث في عصر مملكة مالي، عندما قامت قبائل الموشي بمهاجمة مدينة تنبكت عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، حيث قتلوا عددًا كبيرًا من السكان، فضلًا عن قتلهم لحامية المدينة من الماندنجو[٢٠].

أما في عصر مملكة صنغي فقد أشارت إحدى النوازل إلى استحلال سني علي لدماء المسلمين وقتله الكثيرين منهم[٢١]، " وحارب الكثير من القرى والبلدان... وقتل أهاليها "[٢٢]. ففي إحدى غزواته ضد مملكة مالي،

---

(١٩) السعيدي: مصدر سابق، ص ٩٨، ١٠٣.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٨، ٩.

(٢١) المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٣٧.

(٢٢) كعت: مصدر سابق، ص ٤٣-٤٤.

هرب أهلها أمام هذا الغزو، وقتل البعض[٢٣]. وفي خضم حربه ضد مملكة الموشي عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، حارب أهل مدينة بَرْكُنَ، ولأنها كانت تضم مقر إقامة ملك الموشي (موشِكُيْ)، نكل بأهلها " وقتلهم شر قتلة "[٢٤]. وعندما خرج للحرب ضد مدينة جني عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م، مر في طريقه علىٰ قرية تدعىٰ شِيطَيْ، التي كانت تابعة لحاكم مدينة جني، فنهض حاكم القرية المدعو كرن، بعد أن جمع جيشًا كبير العدد من أبناء القرية، والتقىٰ بجيش سني علي " وتناضلا نضالًا شديدًا فأفني جيش كرن "[٢٥]، ثم وصل سني علي إلىٰ قرية أخرىٰ كانت تابعة لحاكم جني أيضًا تدعىٰ بكُونَا، فنهض لمحاربته حاكم القرية المدعو تُنْكي، ومعه جنده الذين هلك الكثيرون منهم في المعركة[٢٦]. وهو ما يبرهن علىٰ أن الحرب كانت تفتك بأرواح أهالي مدن وقرىٰ كاملة، نتيجة رغبة الجيش في الانتقام من العدو، وهو ما أدىٰ إلىٰ كثرة أعداد القتلىٰ في الحروب.

كما أمر سني علي قائده المختار بن محمد نض بقتل عدد كبير من أهل تنبكت لاسيما من العلماء وأبنائهم علىٰ أثر غزوه لهذه المدينة عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م[٢٧]. وقد فر البعض من أهل تنبكت إلىٰ ولاتة فأخذ المختار بن محمد نض يتعقبهم فلحقهم في مكان يسمىٰ تعجت " فتقاتلوا ومات في ذلك خيار أهل سنكري وهي الموقعة المعروفة باسم تعجب (تعجت)"[٢٨]، ولم يكتف بذلك بل إنه ظل يتعقب من هرب منهم، وظل يلاحقهم بالقتل حتىٰ عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠[٢٩].

---

(٢٣) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢٤) نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) نفسه، ص ٥٠.

(٢٦) نفس المصدر والصفحة.

(٢٧) المصدر السابق، ص ٤٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٥.

(٢٨) كعت: مصدر سابق، ص ٤٤.

(٢٩) السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٥، ٦٦.

كما أدت حروب سني علي إلى مقتل الكثيرين من أبناء بعض القبائل، فعلى أثر انتصاره على أهل مدينة أنكند، قام بقتل جميع سكان هذه المدينة من قبيلتي صنغي، وجم كري، ولم ينج منهم إلا القليل(٣٠).

وهكذا صاحبت الحروب التي خاضها سني علي سلسلة من المجازر الشنيعة التي أثرت على التركيبة السكانية لبلاد السودان الغربي، وأحدثت بها خلخلة واضحة(٣١). فهذه الحملات الحربية لم تكن مجرد مواجهات بين جيشين وقادتهما فقط، بل إن أي مدينة كان يغير عليها جيش غازٍ كانت تهب للدفاع عن أرضها، وهو ما أكده كعت (المتوفى عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩١م) عند حديثه عن غزوات سنى علي بأنه " قاتل أهل جنى... وقاتل أهل مل (مالي) مرتين... وقاتل أهل تند "(٣٢)، وهذا يعني أن تأثيرات الحرب كانت تطال جزءًا كبيرًا من السكان.

على أية حال، نال عهد سني علي النصيب الأكبر من إشارات القتلى وعدد الحروب في المصادر السودانية، إذ تشير هذه المصادر إلى اثنتا عشرة إشارة خاصة بالقتلى، وأربع عشرة إشارة خاصة بالحروب، في حين بلغ عدد الإشارات الخاصة بقتلى الحرب طيلة عهود الأساكي – وعددهم عشرة – سبع عشرة إشارة فقط، على الرغم من خوضهم تسعًا وثلاثين حربًا، وهو أمر يجعلنا نرجح أن علاقة العداء التي جمعت سني علي بالعلماء، ومنهم القائمون على تدوين تاريخ المملكة، قد جعلت أولئك المؤلفين يركزون على مساوئ سني علي ويحصون أعماله القاسية، ومنها التنكيل بأعدائه، وهو أمر

---

(٣٠) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٠.

(31) Gouvernement Général de l'Afrique Occidentale Française: Notice sur la Région de Tombouctou P. 5.

(٣٢) كعت: مصدر سابق، ص ٤٥- ٤٧.

لا يعبر عن المبالغة تجاه آثار الحرب، ولكنه يثبت أن إشارات القتلىٰ في عهود الأساكي لم تكن معبرة عن واقع آثار الحرب بالنسبة للبنية الديموغرافية.

وعلىٰ هذا فإن أعداد الضحايا من قتلىٰ الحرب كانت كبيرة، واستمر الازدياد في أعداد الضحايا باستمرار النهج الحربي للأساكي، الذين شهد عهدهم هلاك ومقتل الكثيرين في الحروب التي خاضتها المملكة، من ذلك ما حدث خلال الحرب التي قادها محمد بن أبي بكر التوري ضد سني بارو بن سني علي عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، حيث انتصر محمد التوري علىٰ جيش سني بارو، " وقتلهم قتلًا ذريعًا حتىٰ ظن الناس أن الفناء نزل بهم وأن هذا خراب الدنيا "[٣٣].

كما لقي كثير من أبناء مملكة الموشي حتفهم في عهد الأسكيا محمد الأول (٨٩٨-٩٣٥هـ /١٤٩٣- ١٥٢٩م)، الذي قاد حربًا ضد هذه المملكة عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، حيث إنه " قتل رجالهم "[٣٤]. كما عانىٰ جيش صنغي نفسه في عهد الأسكيا المذكور من حالات القتل التي طالت جنوده، فقد قتل عدد كبير منهم عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م في معركة بُرجو، لدرجة جعلت عمر كمزاغ أخا الأسكيا محمد الأول يبكي قائلًا لأخيه: "... لقد أفنيت سُغي..."[٣٥].

وخلال المعركة التي خاضها الأسكيا موسىٰ (٩٣٥-٩٣٧هـ/ ١٥٢٨-١٥٣٠م) ضد إخوته عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م، شهدت هذه المعركة مقتل عدد كبير سواء من جيش موسىٰ أم من جيش إخوته[٣٦]. كما قتل الكثيرون من جيش صنغي في عهد الأسكيا محمد مربنكن (٩٣٧-٩٤٣هـ/ ١٥٣١-٥٣٦م)

(٣٣) كعت: مصدر سابق، ص ٥٣-٥٥؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٧١، ٧٢.
(٣٤) كعت: مصدر سابق، ص ٧٠؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٤، ٧٥.
(٣٥) السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٦.
(٣٦) كعت: مصدر سابق، ص ٨٢-٨٣؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٨٣.

في معركة ضد مملكة كبي في منطقة ونترماس عام ٩٣٧هـ/ ١٥٢٠م، لدرجة جعلت السعيدي (المتوفى عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) يصف انتصار ملك كبي على مربنكن وجيشه قائلًا "... هزمه هزيمة كاد أن يموت ويموت جيشه كلهم..." [٣٧]. وفي آخر عهد مربنكن خاض جيش صنغي حربًا ضد مملكة كرم الوثنية، وقتل من أبنائها الكثيرين[٣٨].

وانتقم جيش الأسكيا إسماعيل (٩٤٣-٩٤٦هـ/ ١٥٣٧-١٥٣٩م) من جيش مملكة كرم، وقتل الكثيرين منه، ردًا على قتلهم تسعمائة فارس من جيش صنغي[٣٩]. كما إن الأسكيا إسحاق الأول (٩٤٦-٩٥٦هـ/ ١٥٣٩-١٥٤٩م) " قتل من الناس أهل الجند خلقًا كثيرًا "[٤٠]. وعندما غزا الأسكيا داوود (٩٥٦-٩٩٠هـ/ ١٥٤٩-١٥٨٢م) أرض بُصَ في عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م، مات في المعركة الكثيرون من الأهالي والجند[٤١]. وفي عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م قامت فرقة من الجيش السعدي بقتل المسئول عن معدن ملح تغازة من قبل الأسكيا داوود، وقتلت معه بعض الطوارق الذين كانوا يعملون في المعدن[٤٢].

وفي عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م أرسل الأسكيا داوود فاري بكر علي دُودُ على رأس سرية لقتال أهل بُرجو، " فاقتتلوا وقتلهم جميعًا أهل سغي (صنغي) "[٤٣]. وفي عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م قام جيش الأسكيا داوود بقتل عدد كبير من أبناء ماسينا، انتقامًا من أهلها الذين هجموا على القارب

---

(٣٧) ملوك السودان أهل سنغي، ص ٨٨.
(٣٨) المصدر السابق، ص ٨٩.
(٣٩) المصدر السابق، ص ٩٤-٩٥.
(٤٠) كعت: مصدر سابق، ص ٨٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٩٥.
(٤١) السعيدي: مصدر سابق، ص ١٠٣.
(٤٢) المصدر السابق، ص ١٠٦.
(٤٣) المصدر السابق، ص ١٠٧.

الملكي الخاص بالحاج محمد بن داوود ونهبوه، وقام جيش صنغي بالإغارة علىٰ أهل ماسينا، "... وأفسدها فسادًا عظيمًا وقتل فيها من فضلاء الطلبة وصلحائها كثيرًا..."(٤٤). كما قتل الكثيرون في أحداث الحرب علىٰ السلطة بين الأسكيا إسحاق الثاني وأخيه بلمع محمد الصادق عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م(٤٥)، يقول السعيدي " اقتتلوا من الضحىٰ إلىٰ الغروب فمات بينهم خلق كثير "(٤٦)، وبعد أن قضىٰ إسحاق علىٰ الفتنة وهزم أنصار أخيه بلمع الصادق، أخذ يتعقب أتباع أخيه وأنصاره وقتل كثيرًا منهم(٤٧). ولعل ما يوضح حجم الآثار التي خلفتها الحرب علىٰ التركيبة الديموغرافية بتسببها في مقتل الكثيرين أن الأسكيا إسحاق الثاني (٩٩٦-٩٩٩هـ/ ١٥٨٨-١٥٩١م) خاض حربًا ضد مملكة كرم الوثنية مرتين، وقتل من جند هذه المملكة أكثر رجالها، لدرجة أن كعت وصف هذه الحادثة بأن إسحاق " كاد أن يستأصلهم "(٤٨).

وعندما التقىٰ الجيش المراكشي بجيش مملكة صنغي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، قتل المغاربة من أهل هذه المملكة "... قوم لا يحصون كثرة... "(٤٩)، واضطر البعض للهرب، "... وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه..."(٥٠).

---

(٤٤) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤٥) كعت: مصدر سابق، ص ١٢٧-١٣١، ١٣٦، ١٤٠.

(٤٦) ملوك السودان أهل سنغي، ص ١٢٨.

(٤٧) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٢، ١٤٣؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ١٢٩.

(٤٨) تاريخ الفتاش، ص ١٥٤.

(٤٩) مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٤، ص ٦٨.

(٥٠) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ج٥، ص ١٢٥.

وعلى الرغم من كثرة إشارات القتلى، إلا أنها لم تسعفنا لإعداد إحصاء يتضمن أعداد قتلى الحرب خلال فترة البحث، ولكن أوردت بعض المصادر بعض الإشارات التي تشير إلى قتلى من المدنيين دون العسكريين، وأحصت أعدادهم أحيانًا، ومن ذلك أن سني علي بعدما غزا مدينة تنبكت عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م أمر بقتل ثلاثين بنتًا من بنات علماء صنهاجة، فقتلن جميعًا، كما إنه بعد غزوه لهذه المدينة قام جنوده بقتل ثلاثين من أبناء القاضي الحيي[٥١]. ومنها أيضًا ما حدث عندما دخل الأسكيا موسى في حرب عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م ضد إخوته وأبناء عمومته الذين نازعوه السلطة، حيث قتل من أولاد عمه كرمن فار عمر كمزاغ أكثر من ثلاثين[٥٢].

أما إشارات الخاصة بإحصاءات قتلى الجنود فقد أشار السعيدي إلى بعضها، منها أنه عندما غزا الأسكيا إسماعيل ملك يدعى بكبول في أرض كرم عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، قُتل تسعمائة فارس من جيش مملكة صنغي[٥٣]. كما قتل بعض فرسان صنغي في عهد الأسكيا داوود، الذي أرسل سرية بقيادة هيكي علي داد لغزو كاتسينا عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م، وكان عدد هذه السرية مكونًا من أربعة وعشرين فارسًا من فرسان صنغي واجهوا أربعمائة فارس من فرسان كاتسينا، فوقع بينهم قتال شديد، فقتل أهل كاتسينا من فرسان صنغي خمسة عشر فارسًا منهم هيكي علي داد نفسه، أما التسعة الباقون فوقعوا في الأسر وكانوا جرحى، فعالجهم أهل كاتسينا ثم أعتقوهم وأرسلوهم للأسكيا داوود إعجابًا بشجاعتهم[٥٤]. وعندما التقى الجيش المراكشي بقيادة جؤدر بجيش صنغي بقيادة الأسكيا إسحاق الثاني عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، قتل

(٥١) السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٦، ٦٧.
(٥٢) كعت: مصدر سابق، ص ٨٢-٨٣.
(٥٣) ملوك السودان أهل سنغي، ص ٩٤-٩٥.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٠٣.

المراكشيون من جنود صنغي أربعة وثلاثين جنديًا، وقتل جيش صنغي من الجيش المراكشي ثلاثة عشر جنديًا. وبالإضافة إلى هذا العدد قتل تسعة وتسعون جنديًا من جيش صنغي، كانوا يشكلون فرقة داخل الجيش تسمى " سُونَةْ "، وظل جنود هذه الفرقة يقاتلون حتى قتلوا جميعًا(٥٥).

من خلال هذه الإشارات المصدرية يمكن القول بأن الحرب تركت أثرها الواضح بالنسبة للبنية الديموغرافية التي عانت خللًا واضحًا نتيجة وقوع الكثير من المحاربين قتلى من ناحية، ثم حل محلهم أعداد كبيرة من الأسرى للعمل في خدمة الأسر الحاكمة من ناحية ثانية، وبهذا أضحى أبناء المجتمع السوداني نتيجة الحرب ما بين مقتولٍ أو فاقدٍ لحريته، وظلت الأسر الحاكمة المستفيد من هذه الحروب، إذ كانت الأكثر فوزًا بمكاسبها والأقل تعرضًا لمخاطرها. ولم تقف آثار الحرب على مجتمع السودان الغربي عند هذا الحد، بل إنها تسببت في حدوث تغيرات على مستوى الحراك الطبقي.

ثانيًا – الحرب والحراك الطبقي:

أعطت المجتمعات البشرية عبر تاريخها امتيازات معينة لشرائح اجتماعية خاصة دون غيرها، وذلك بحسب طبيعة الأدوار التي مارستها تلك الشرائح داخل المجتمع، وأسهمت تلك الأدوار في ارتقاء مناصب رفيعة لأصحابها، وهو ما يصطلح على تسميته " الحراك الطبقي أو الحراك الاجتماعي "(٥٦)، ولذلك فسوف نعرض لأثر الحرب في مسألة الحراك

---

(٥٥) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٦-١٤٨.

(56) Seligman E & Alvin J: Encyclopedia Of The Social Science The Macmillan Company New York 1959 pp. 531-532 Coser L & Rosenberg B: Sociological Theory Second Edition The Macmillan Company New York 1966 p. 156.

الطبقي من خلال دراسة أثر الحرب في إحداث بعض الفوارق بين الطبقات، ثم دور الحرب في بروز شريحة جديدة تمثلت في أسرىٰ الحرب.

١- أثر الحرب علىٰ الترتيب الطبقي:

عدت الحرب في ممالك السودان الغربي واحدة من أهم الأسباب التي ساعدت البعض في الوصول إلىٰ أعلىٰ مراتب السلم الاجتماعي، نتيجة لطبيعة الأدوار التي ارتبطت بالحرب، فضلًا عن أهميتها وتعددها، لاسيما في ظل النهج الحربي الواضح الذي عرفته تلك الممالك السودانية، كما أدت الحرب إلىٰ انحدار البعض إلىٰ أسفل درجات السلم الاجتماعي أيضًا وهو ما يوضح أثر الحرب في إحداث بعض الفوارق بين طبقات المجتمع.

وإذا حاولنا تتبع أثر الحرب في البناء الطبقي لمجتمع السودان الغربي، أو بالأحرىٰ دورها في تمييز شرائح اجتماعية عن غيرها، لوجدنا أن الأمراء، والأعيان، وقادة الفرق العسكرية، وحكام الأقاليم كانوا من أكثر الشرائح الاجتماعية قربًا للمنسا في عصر مملكة مالي، حيث أفاض ابن بطوطة (المتوفىٰ عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) في حديثه عن تقريب المنسا سليمان لقادة الجند من الفرارية، والأمراء الذين أوكل إليهم قيادة جيش المملكة في كثيرٍ من الأحيان، وما منحه إياهم من امتيازات مادية واجتماعية(٥٧)، وهي السياسة التي اتبعها الأساكي في عصر مملكة صنغي، فأشار كعت إلىٰ أن قادة الجند، والقائمين علىٰ أمر الجيش بوجه عام كانوا من أبرز المقربين لمجلس الأسكيا محمد الأول، ومن خاصته الذين كان يستشيرهم في ترتيب

(٥٧) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧، ج٤، ص ٢٤٤، ٢٦٦، ٢٦٩-٢٧٠.

أمور مملكته، وكان طبيعيًا أن يكثر من التوسعة والإغداق عليهم(٥٨)، وهو أمر أسهم في تمتع هذه الشريحة بامتيازاتٍ واسعة دون غيرها، مما يعكس أهمية الحرب فيما نالوه من إغداقٍ وامتيازات، وقد أعان هذا في إدراج شريحة الأمراء وقادة الجند ضمن الطبقة العليا في مجتمعي مالي وصنغي(٥٩). ونظرًا لأهمية الدور الذي اضطلعت به هذه الشريحة، فقد عهد ملوك صنغي بالمناصب الحربية المهمة لأبنائهم وإخوتهم، بل إن معظم الأساكي ارتقوا مناصب عسكرية مهمة قبل وصولهم لحكم المملكة، وهو أمر يفسر من ناحية أخرىٰ حجم الامتيازات التي نالتها هذه الشريحة كونها تألفت في الغالب من أبناء الأسرة الحاكمة، ولأنها شغلت مناصب قيادية في الجيش والأسطول من ناحية ثانية.

وفضلًا عما سبق فنتيجة للحرب كان أي شخص معرضًا لأن يفقد حريته إذا ما ألقي القبض عليه أثناء معركة حربية، وهذا الأمر ميز بين طبقتين متباينتين تمامًا: طبقة الفرسان والقادة، وطبقة العبيد، وأصبحت الطبقة الثانية خادمة للأولىٰ، وأصبح أفراد طبقة العبيد يعملون في حرفٍ مختلفة بحسب تخصصهم قبل وقوعهم في الأسر، بالإضافة إلىٰ تدني الوضع الاجتماعي والمعيشي للكثيرين من أبناء هذه الطبقة بعد وقوعهم في الأسر(٦٠). وبهذا أفرزت الحرب شريحة ازداد عدد أبنائها نتيجة الحروب المتوالية ألا وهي شريحة أسرىٰ الحرب.

---

(٥٨) تاريخ الفتاش، ص ٤٥-٤٨، ١١٤؛ انظر أيضًا السعيدي: مصدر سابق، ص ١١١-١١٥.

(59) Perinbam M: Social Relations In The Trans-Saharan And Western Sudanese Trade: An Overview Comparative Studies In Society And History Vol.15 No.4 Cambridge University Press(Sep 1973) p.

(٦٠) كعت: مصدر سابق، ص ٧٠-٧٤؛ Hale T: Op.cit P. 26.

٢- ظهور شريحة أسرىٰ الحرب:

أسهمت الحروب المتوالية في ظهور شريحة جديدة داخل مجتمع السودان الغربي وهي شريحة أسرىٰ الحرب التي أحدثت نوعًا من الحراك الطبقي والفوراق الطبقية، ويعد ظهور هذه الشريحة واحدًا من أكثر نتائج الحرب الاجتماعية وضوحًا وتأثيرًا، نظرًا لكثرة أعداد أولئك الذين تم استرقاقهم في الغارات والحملات الحربية المستمرة، بل إنه يمكن القول بأن الغنيمة الأبرز بين غنائم الحرب في السودان الغربي تمثلت في الأسرىٰ الذين فقدوا حريتهم وأصبحوا رقيقًا، وكان يتم بيعهم في أسواق الرقيق أو تسخيرهم في أعمال خاصة بالأسرة الحاكمة ومعاونيها وإشراكهم في المجالات الإنتاجية كافة، وأصبحت ظاهرة انتشار الرقيق وأسرىٰ الحرب واضحة جدًا في المجتمع السوداني(٦١).

لقد احتل الكثيرون من أسرىٰ الحرب أسفل السلم الاجتماعي، نتيجة الأعراف المحلية التي فرضت علىٰ أبناء هذه الشريحة، إذ لم يكن يحق لهم الزواج من خارج الأقارب، ولم يكن يحق لأي من أبناء المجتمع الزواج من شريحة الأسرىٰ، وهو ما يشير إلىٰ حالة العزلة التي فرضت علىٰ هذه الشريحة، وفضلًا عن هذا كان مفروضًا علىٰ أبناء هذه الشريحة أن يتبعهم زوجاتهم وأولادهم في الرق، وهو ما أكده كعت عندما أشار إلىٰ وثيقة الحرمة التي كتبها الأسكيا محمد الأول لأحفاد أحد العلماء وهو الشيخ

---

(٦١) الوزان: وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج ٢، ص ١٦٩؛ كعت: مصدر سابق، ص ٣٢؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٤.

مورهوكار[٦٢] الذين كانوا قد وقعوا في الأسر زمن سني علي، فتراجع وضعهم الاجتماعي والمعيشي لدرجة أنهم طلبوا من الأسكيا محمد أن يتصدق عليهم، فكتب لهم وثيقة الحرمة التي بمقتضاها أسقط عنهم غرامات المملكة وضرائبها، وأمر بعدم تعدي أحد من جنوده عليهم، كما إنه سمح لهم ولذرياتهم الزواج ممن يشاءون في المملكة كلها دون عائق، وأن يصبح أولادهم من هذا الزواج أحرارًا، وأن تصبح أمهاتهم تابعات لهم في الحرية[٦٣]. ويؤكد هذا الأمر أن الحرب كانت سببًا في إحداث حراك اجتماعي هبط بالبعض من أبناء العلماء إلى أسفل السلم الاجتماعي بعد أن كانوا في قمته.

وبعد أن فقد كثير من الحرفيين حريتهم بالأسر في الحروب، أصبحوا تحت تصرف الحكام يوجهونهم كيفما شاءوا، وفي الغالب تعرض هؤلاء الحرفيون لضغطٍ واضح حيث اضطلعوا بخدمة الأسرة الحاكمة، وقادة الجيش، وتوفير احتياجاتهم مقابل توفير حاجتهم اليومية من الغذاء، أما أولئك الذين تم بيعهم في أسواق الرقيق، فقد عانوا من مستوىٰ معيشي متدنٍ، انعكس علىٰ حياتهم الاجتماعية، ولذلك عرضت بعض النوازل صورًا لإباق " أي هروب " بعض العبيد من أسيادهم وخروجهم عن الطاعة، نتيجة لسوء المعاملة وتدني مستواهم الاقتصادي والاجتماعي[٦٤]،

---

(٦٢) الشيخ مور محمد هوكار، كان عالمًا فقيهًا زاهدًا، أحبه الأسكيا محمد الأول وقربه إليه، وجعله مستشارًا له، واصطحبه معه في رحلة الحج عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م. توفي مورهوكار خلال القرن العاشر الهجري، انظر السعيدي: مصدر سابق، ص ٥٨-٦٠؛ البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص٧١.

(٦٣) كعت: مصدر سابق، ص ٧١-٧٤.

(٦٤) الغلاوي: العمل المشكور في جمع نوازل التكرور، مخطوطة بمعهد أحمد بابا التنبكتي، مدينة تنبكت، مالي، تحت رقم ٥٢١، ج ٤، ورقة ٢١١ – ٢١٤.

بل والديني والثقافي أيضًا، فقد سُئل محمود بن عمر أقيت (المتوفى عام٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م) عن العبيد هل من الواجب على سيدهم أن يدفع عنهم زكاة الفطر رغم أنهم لا يصلون، ولا يعرفون شيئًا عن الشهادتين(٦٥). وهذا يعني أن أولئك العبيد كلفوا بالأعمال الشاقة فقط ولم يهتم سادتهم في الغالب بمستواهم الثقافي أو الديني. وهي إشارات تحمل على التأكيد على أن أسرى الحرب لم يصلوا إلى مراتب اجتماعية عليا، باستثناء عدد قليل من رؤسائهم الذين أفاضت المصادر السودانية في الحديث عن ثرواتهم، ومن ثم تنبه نحميا ليفتزون (Levtzion Nehmia) إلى مسألة مهمة جدًا وهي أن وصول بعض العبيد إلى مرتبة اقتصادية عليا دون الاجتماعية لا يعني أن وضعيتهم كانت مريحة كما تحمل نصوص كعت والسعيدي على الاعتقاد بذلك، فقرى العبيد كانت منتشرة في جميع أرجاء المنطقة تحت إشراف رؤساء الرقيق "الفنافي"، وكان هؤلاء الرؤساء مسئولين أمام الحكام على جمع المحاصيل وتوريدها لمخازن الحبوب الخاصة بالحكام، وبالتالي كانوا هم الأكثر استفادة مما يمنحه لهم الملوك دون غيرهم من العبيد الذين تحت إشرافهم، وبالتالي كان أولئك العبيد أقل شأنًا اقتصاديًا وكذا اجتماعيًا من أسيادهم والمشرفين عليهم من رؤساء العبيد، وهو ما يستلزم التمييز بين شريحتين متباينتين من أسرى الحرب: الرؤساء (الفنافي) - من أمثال علي فلن(٦٦) الذي وصل إلى منصب مستشار الأسكيا محمد الأول،

(٦٥) المصدر السابق، ج ١، ورقة ٢٦١، ٢٦٢.

(٦٦) نتيجة إخلاص علي فلن للأسكيا محمد الأول أصبح من أمناء سره المقربين، ورافق الأسكيا في جميع أعماله، وأدى وصول علي فلن إلى هذه المكانة إلى غيرة الأسكيا موسى (٩٣٥- ٩٣٨هـ/ ١٥٢٨- ١٥٣١م) ابن الأسكيا محمد منه، فقام بطرده من القصر عام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م، كعت: مصدر سابق، ص ١٤٨.

ومسكل الله[٦٧] رئيس فنافي العبيد في عهد الأسكيا داوود - والرقيق الخاضعين لإشرافهم، والذين عملوا في حرف متنوعة خدمة لحاجات المملكة السودانية[٦٨].

وقد زاد عدد أبناء هذه الشريحة في مجتمع السودان الغربي نتيجة الحاجة الملحة إلى أعمالهم باستمرار؛ ولذلك نظمت حملات حربية للحصول على العبيد، فضلًا عن بيع بعضهم للتجار من بلدان المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى قيام بعض الزعماء المحليين بقنص أعداد كبيرة من الأحرار ثم بيعهم للبرتغاليين على الساحل، فقد أدى وصول البرتغاليين بالقرب من الساحل وزيادة الطلب على الرقيق إلى قنص الكثيرين من الأحرار وتكبيلهم وبيعهم[٦٩].

وهكذا أفرزت الحروب شريحة اجتماعية ازداد عددها باستمرار في مجتمع السودان الغربي، ألا وهي شريحة أسرى الحرب، التي ارتقى البعض القليل من أبنائها مراتب عليا في الممالك السودانية، بينما انحدر غالبية أسرى الحرب إلى أسفل درجات السلم الاجتماعي، وهو أمر كان

---

(٦٧) ذكر كعت أن مسكل الله تصدق بمحصول مزرعة كاملة من الأرز في أحد الأعوام، بل إنه ترك المزرعة للضعفاء والمساكين يحصدونها، تقربًا لله تعالى، وبالفعل قام الفقراء والمساكين من أهل دَنْكِ، و دُمْدِ باقتطاع المحصول واقتسامه فيما بينهم، انظر: تاريخ الفتاش، ص ٩٧، ٩٨.

(٦٨) الوزان: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٩، ١٧٠؛ كعت: مصدر سابق، ص ٩٦، ٩٧، ١٤٨.
Levtzion N: A seventeenth Century Chronicle by Ibn Al-Mukhtar: A Critical Study of Tarikh Al-Fattash Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXXIV No. 34 1971 PP. 589 – 590.

(69) Levtzion N: Ancient Ghana And Mali Africana Publishing Company New York 1980 P. 120.

له أثره في إحداث حالة من الحراك الطبقي والاجتماعي، حيث شهدت البنية الطبقية هبوط شرائح وارتقاء أخرىٰ بسبب الحروب المتكررة؛ مما يعني أن شرائح المجتمع السوداني أخذت تتبدل صعودًا وهبوطًا وفقًا لنتائج الحرب في كثيرٍ من الأحيان. وإذا كانت نتائج الحرب قد أحدثت تغيرات بالنسبة للبناء الاجتماعي أحيانًا، فإن آثارها امتدت لتلاحق الأسرة في مجتمع السودان الغربي.

ثالثًا – آثار الحرب علىٰ الأسرة السودانية:

تركت الحرب آثارًا بالغة علىٰ الأسرة السودانية التي شهدت أوضاعها تغيرات متلاحقة في خضم الغزوات التي شهدها المجتمع السوداني، تلك الغزوات التي أضرت بالمرأة والطفل، وعصفت باستقرار الأسرة السودانية، التي كانت تتابع أخبار الحرب وتخشىٰ من عواقبها.

١–أخبار الحرب وانعكاساتها علىٰ الأسرة:

عاشت الأسرة السودانية حالة من الخوف والترقب التي فرضتها الحرب مع كل غزوة كان يشنها الجيش، أو كل ردة فعل من جيش الخصم، فآثار الحرب كانت تمس الأسرة السودانية بالدرجة الأولىٰ، إذ لم يسلم أي من أفرادها من البطش والتنكيل الذي كانت تتعرض له المدن نتيجة هزيمة جيشها، وما كان يستتبع تلك الهزيمة من قتل أو استرقاق للكثيرين من الرجال والنساء والأطفال، وهو مصير كانت الأسرة السودانية تخشاه باستمرار حال سماعها بقدوم جيشٍ غازي(٧٠).

فقد كان للحرب مردودات نفسية سلبية بالنسبة لأسرة الجند المحاربين، فهذه الأسرة كانت تتابع تحركات الجيش وغزواته، وأخباره التي

(٧٠) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٦، ١٤٧؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٨٨.

كان يتناقلها الناس عما تعرض له الجيش من نصر وهزيمة، مثلما حدث عندما وصلت الأخبار بهزيمة جيش مملكة مالي في عهد منسا مغا بن منسا موسى (٧٣٨- ٧٤٢هـ/ ١٣٣٧-١٣٤١م) أمام جيش الموشي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م[٧١].

أيضًا أحدثت معركة أنفع التي وقعت عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، بين سني بارو بن سني علي، والقائد محمد بن أبي بكر التوري، هلعًا لدى الأسرة السودانية، والمجتمع بأسره، فنتيجة كثرة أعداد الضحايا، أصيب الأهالي بالرعب، "... حتى ظن الناس أن الفناء نزل بهم وأن هذا خراب الدنيا..."[٧٢]، وتكرر نفس الأمر عندما أصيب البعض بالحزن والخوف نتيجة أحداث معركة برجو عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، والتي هلك فيها الكثيرون من أبناء الجيش الصنغي[٧٣].

وعندما هزم جيش صنغي في عهد الأسكيا محمد مربنكن في معركته في ونترماس ضد جيش كانتا ملك كبي عام ٩٣٧هـ/ ١٥٣١م، تناقل الناس خبر الجيش، وما حدث لجيش مربنكن أمام جيش كانتا الذي هزم جيش مربنكن، وأن الأخير " كاد أن يموت ويموت جيشه كلهم "[٧٤]، وهي أخبار كانت تتابعها أسر الجنود بكل خوفٍ وترقب، لمصير ذويهم من الجند، وطبعت حياة هذه الأسر بالخوف من نتائج الحرب.

غير أن حالة الخوف والترقب لم تكن وحدها التي قضت مضاجع الأسرة السودانية، فالخوف من نتائج الحرب وآثارها لم يكن كفيلًا بنجاة الأسر من تلك الآثار، فكثيرًا ما كانت تصاب أسر الجنود بفاجعة قتل

---

(٧١) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص ٢٦٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٥، ٨، ٩.
(٧٢) السعيدي: مصدر سابق، ص ٧١، ٧٢.
(٧٣) المصدر السابق، ص ٧٦.
(٧٤) المصدر السابق، ص ٨٨.

ذويهم من الجند، مثلما حدث عندما هزم جيش مملكة مالي أمام جيش الموشي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، حيث تم قتل جنود حامية مدينة تنبكت[٧٥]. كما قتل الكثيرون من جنود جيش صنغي في معركة أنفع عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م[٧٦]. كما أصيبت أسر الجنود بفاجعة مقتل الكثيرين من جند صنغي في معركة برجو عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، وتكرر الموقف عندما قتل البعض من جيش صنغي في أثناء حرب الأسكيا موسىٰ ضد إخوته عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م[٧٧].

وقتل الكثيرون من جنود جيش صنغي في غزوة للأسكيا إسماعيل عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، وتكرر نفس الأمر في عهد الأسكيا إسحاق الأول. أيضًا قتل بعض فرسان صنغي في عهد الأسكيا داوود عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م[٧٨]، وعلىٰ أثر الغزو السعدي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، قتل الكثيرون من الجند أيضًا[٧٩].

وهكذا أصيبت الأسرة بحالة من الخوف والترقب في ظل الحرب، انتهت بفاجعة مقتل البعض من أرباب الأسر السودانية من الجند في الحروب، وترملت زوجاتهم، وهو ما يعني تأثر وضعية المرأة نتيجة الحرب، فما هي الآثار التي تركتها الحرب علىٰ المرأة في ممالك السودان الغربي؟

٢- أثر الحرب علىٰ المرأة:

لم تنته معاناة المرأة بسبب الحرب لمجرد أن أصبحت أرملة بعد أن

---

(٧٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص ٢٦٨؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٥، ٨، ٩.
(٧٦) كعت: مصدر سابق، ص ٥٣-٥٥؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٧١-٧٢.
(٧٧) السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٦، ٨٣.
(٧٨) المصدر السابق، ص ٩٤-٩٥، ١٠٣.
(٧٩) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٦-١٤٧.

فقدت زوجها، فقد واجهت مزيدًا من المعاناة نتيجة مبالغة المنتصر في التنكيل بأعدائه، فقد بلغ من قسوة سني علي – وإن بالغت المصادر – أنه كان يبقر بطن المرأة وهي حية، ويخرج جنينها ويقتله، وأحيانًا كان يأمر الأم بقتل طفلها(٨٠)، وهو الأمر الذي يجسد معاناة المرأة أثناء الحرب حيث كانت تفقد زوجها وأطفالها أمام عينيها. وأحيانًا كانت المرأة تحرم من أبنائها الذين كانوا يقعون في الأسر، من ذلك أن امرأة عجوزًا جاءت إلى الأسكيا داوود بعد أن أسر أبناءها، وعددهم سبعة وعشرون، فتوسلت إليه ألا يفرق بين أبنائها، فإذا رغب في بيعهم، فليبيعهم لشخصٍ واحد، وإن رغب في إهدائهم، يهديهم لشخصٍ واحد، وهو الأمر الذي جعل الأسكيا يعطف على هذه العجوز التي عانت فقد أبنائها، فأعتقهم جميعًا(٨١).

وفضلًا عن هذا لم تكن المرأة بمنأى عن القتل في بعض الحروب، فتشير إحدى كتب النوازل إلى أن سني علي استحل دماء المسلمين وأموالهم، فقتل كثيرًا من النساء اللاتي لم يسلمن من إيذائه(٨٢). وبعدما غزا مدينة تنبكت عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م، قام بالقبض على والدة الفقيه محمود سِتَ بنت أندغمحمد وسجنها، وقتل بعض النساء، كما قبض على أولاد القاضي الحيي وبناته، ونسائه، وسجنهم، وقتل كثيرًا منهم(٨٣).

ولم ينج بنات العلماء – اللاتي تمتعن بقدر ونفوذ كبيرين في المجتمع السوداني – من آثار الحرب، لاسيما القتل، فبعد أن دخل سنى علي مدينة تنبكت وقتل كثيرًا من علمائها، أمر بالقبض على ثلاثين بنتًا من بنات العلماء الأبكار ليكن من جواريه، منهن ثلاث من أسرة آل أقيت بزعم أن هذه

(٨٠) المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤.
(٨١) المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٣.
(٨٢) المغيلي: مصدر سابق، ص ٣٧.
(٨٣) السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٥- ٦٦.

الأسرة تعاونت مع أعدائه الطوارق، وعندما تأخر الثلاثون بنتًا عن التوجه إليه وهو في مرسىٰ كابارا علىٰ النيجر؛ أمر بقتلهن جميعًا وعرف هذا المكان بعد هذه الحادثة باسم " فناء قدر الأبكار "(٨٤).

وفضلًا عن تعرض المرأة للقتل، كانت أيضًا عرضة للوقوع في الأسر، حيث أشارت المصادر إلىٰ بعض الحالات التي وقعت فيها المرأة السودانية في الأسر، وهو ما أدىٰ إلىٰ زيادة عدد الإماء في مجتمع السودان الغربي، فنتيجة حروب مملكة مالي المتوالية لاسيما في عهدي منسا موسىٰ ومنسا سليمان أسر الكثيرون من النساء، ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة أنه عندما شرع في العودة إلىٰ المغرب، سافر ضمن قافلة ضمت ستمائة جارية من النسوة والفتيات اللاتي أُخذن من تكدة ليتم بيعهن في أسواق الرقيق، لدرجة دفعت ابن بطوطة ليؤكد علىٰ أن التجارة في العبيد والإماء أصبحت تنافس التجارة في الذهب(٨٥).

وحدثتنا المصادر عن سبي سني علي لنساء علماء صنهاجة بعد غزوه لمدينة تنبكت عام٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م، وبعث كثيرًا من نسائهم إلىٰ كبراء تنبكت وبعض علمائها، وأمرهم أن يتخذوهن جواري، وقد تزوج الفقيه عبد الله البلبالي(٨٦) واحدة منهن وكان اسمها عائشة الفولانية. وعندما غزا

---

(٨٤) المصدر السابق، ص ٦٦.

(٨٥) كولين ماكيفيدي: أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٣٨.

(٨٦) كان الفقيه عبد الله البلبالي عالمًا متمكنًا، جاء إلىٰ تنبكت قادمًا من فاس بصحبة كاتب موسىٰ، وكان الملك سني علي – برغم سوء علاقته بالكثيرين من العلماء – يحترمه كثيرًا ويجله لمكانته العلمية، ويعد البالي أول فقيه من البيض صلىٰ بالناس في الجامع الكبير بتنبكت في بداية عهد سني علي. وتوفي خلال القرن التاسع الهجري، انظر السعيدي: مصدر سابق، ص ٥٨-٦٠؛ البرتلي: مصدر سابق، ص ٧١.

ملك الموشي مدينة ولاتة عام٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، أسر بعض نساء هذه المدينة بعد أن فرض حصاره عليها لمدة شهر(٨٧).

ومن الإشارات الدالة على معاناة المرأة من الوقوع في الأسر، أن حاكم مدينة كابارا (كبركُيْ) كانت له جارية تدعى زار كبر نكي ولدت له ابنًا، ثم أسرها الأسكيا محمد الأول، فولدت له ابنه موسى. وفي عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م عندما غزا الأسكيا محمد الأول غزوة برجو، وقعت الجارية المذكورة في أسر سلطان بُصُ (بُصُ كي) فولدت له ابنًا أصبح سلطانًا في سلطنة بص(٨٨)، وهكذا وقعت هذه المرأة في الأسر ثلاث مرات، وفي كل مرة أصبحت ملكًا لمن يأسرها وأنجبت منه، وهو ما يؤكد أن حياة هذه المرأة لم تعرف استقرارًا، فضلًا عن التفكك الأسري الذي حدث نتيجة الحرب، ففي كل مرة تقع المرأة في الأسر كانت تحرم من أسرتها وأبنائها.

كما وقع بعض بنات الأساكي في الأسر أثناء الغزو المراكشي لصنغي عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، ومنهم ينبعلي بنت الأسكيا داوود، وفَتِ تور بنت أسكيا الحاج محمد بن الأسكيا داوود التي اقتيدت إلى مراكش وماتت فيها مع من مات من الأسرى السودانيين(٨٩).

أما بالنسبة لوضعية الإماء اللاتي كثر عددهن نتيجة لاعتماد المجتمع على الغزو والحرب، فلم تكن بأفضل حالٍ من الأسرى الأرقاء من الرجال، فكان يعهد إلى المرأة الأسيرة أن تعمل أحيانًا في خدمة الأسرة الحاكمة، أو تمنح كهدية مع غيرها من العبيد والإماء إلى المقربين من الأسرة الحاكمة، كما كلف الإماء بأعمالٍ أخرى، من ذلك أن الأسكيا داوود أهدى للمسجد

(٨٧) السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٧، ٦٩.
(٨٨) المصدر السابق، ص ٧٦، ١٣٤.
(٨٩) المصدر السابق، ص ١٣٥-١٣٦.

الكبير في تنبكت (مسجد جنكريبر) سبعة وعشرين عبدًا وأمة، وأمر إمام المسجد أن يستعملهم في خدمة المسجد، وكان على النسوة أن ينسجن حصر المسجد، ويقمن بفرشه(٩٠).

كما أصبحت الأمة ملكًا لسيدها يتصرف فيها كيفما شاء، ولم يكن يحق لها أن تفعل أي شئ أو تقدم على أي أمرٍ من أمور حياتها إلا بعد استئذان سيدها، وإن لم يأذن لها لا يحق لها أن تفعل ما تريد، بل كان من حق السيد أن يفسخ عقد زواج أمته إن هي تزوجت بغير إذنه(٩١).

ونتيجة لكثرة أعداد الإماء أيضًا انتشرت ظاهرة التسري بالإماء واتخاذ المحظيات، فكان سني علي كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، ولم يكن يبالي بزوجها ولا أي أحد. كما قام بإهداء عدد كبير من المحظيات من أسرى الحروب لبعض العلماء المشهورين، لكن بعضهم استشعارًا للحرج، تزوج من هؤلاء الأسرى، وظل البعض الآخر يتخذهن محظيات دون حرج(٩٢).

وكان من العوامل التي أدت إلى ازدياد ظاهرة التسري ما قضت به تقاليد وعادات الصنغي بأحقية الأسكيا في ميراث جنده، فكان من حقه أخذ أولاد الجندي المتوفى وبناته، ليصبحوا عبيدًا لديه، وكان من حقه أن يتسرى بأولئك البنات دون زواج، ومما يدل على هذا أن الأسكيا محمد الأول عندما كان في رحلة الحج عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م كان بصحبته أحد قادة جيشه ويدعى بَرَكُيْ منس كُورَ، وعندما دخلا سويًا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، توسل بركي كور بحرمة القبر الشريف، وطلب من

(٩٠) كعت: مصدر سابق، ص ١٠٦، ١٠٧.
(٩١) الغلاوي: مصدر سابق، ج ٢، ورقة ١٣، ١٤.
(٩٢) المغيلي: مصدر سابق، ص ٣٧.

الأسكيا ألا يأخذ بناته إلى داره بدون نكاح، وأخذ منه عهدًا على ذلك(٩٣). ومما يؤكد استشراء هذه الظاهرة أيضًا أن الأسكيا داوود كان له الحق في ميراث جنده، واتخاذ بناتهم والتسري بهن، وهو الأمر الذي وصفه كعت بالمصيبة(٩٤). وهو ما يؤكد الغبن الذي كان يقع على البنت بعد وفاة أبيها الجندي، ويبرهن على انتشار التسري في المجتمع نتيجة للحرب.

وقد شاعت ظاهرة اتخاذ المحظيات والتسري بالنساء من أسرى الحرب بين أبناء الطبقة الحاكمة، وكبار القادة، فباستثناء الأسكيا محمد الأول مؤسس أسرة الأساكي، كان كل الأساكي الذين جاءوا بعده أبناء محظيات اتخذن من أسرى الحروب(٩٥)، وكانت النتيجة أن هؤلاء الأطفال المولودين من النساء التي اتخذت خلال الحروب كانت لديهم ميول قوية نحو القتال بهدف انتزاع السلطة، وكانوا أكثر جرأة على خوض الحروب لهذا

---

(٩٣) كعت: مصدر سابق، ص ٦٩.

إن مسألة ميراث الحاكم لأبناء الجندي المتوفي، وميراث زوجته، والتسري بها دون زواج شرعي، تطرح تساؤلًا في غاية الأهمية وهو: كيف لمجتمع مسلم أن تصدر عنه مثل هذه التصرفات؟ وفي واقع الأمر فإن المصادر السودانية لا تقدم ما يجيب على هذا التساؤل باستثناء أن هذه التصرفات تعد من العادات المحلية المتوارثة، وهنا نطرح سؤالًا آخر، وهو: أين دور قضاة المسلمين وفقهائهم حيال هذه التجاوزات؟ والراجح أن بعض القضاة والفقهاء لعبوا دورًا مهمًا في التصدي لهذه التجاوزات التي وقعت في حق المرأة والطفل في مجتمع السودان الغربي، من تسري، واسترقاق، ولذلك فمن الممكن أن يكون إحجام بعض الفقهاء عن منصب القضاء له صلة وثيقة بهذه التجاوزات، وأن يكون هذا الإحجام من قبيل الاعتراض على تجاوزات الحكام، لدرجة أن بعض القضاة كانوا يجبرون على شغل منصب القضاء، وكانوا يصرخون ويبكون متوسلين لئلا يشغلوا هذا المنصب، من أمثال القاضي محمود بغيع، والقاضي عثمان درم، كما هرب آخرون عندما علموا بتوليهم منصب القضاء، مثل محمد وأحمد ابني القاضي محمود بغيع، انظر كعت: مصدر سابق، ص ٨٩، ٩٠، ١١٣.

(٩٤) تاريخ الفتاش، ص ١١٦.

(٩٥) المصدر السابق، ص ٨١.

الهدف، ولذلك كانت السلطة تذهب إلى الأقوى[٩٦]، فالأسكيا موسى الذي خلع والده من السلطة، وأعلن نفسه أسكيا جديد هو ابن إحدى المحظيات التي تدعى جار كرب[٩٧]، أما الرواية الشفوية التي جمعها نوحو ماليو Nouhou Malio فتشير إلى أن اسم أم الأسكيا موسى هو زارا المانياوري Zara Almanyauri، وترجع أصولها إلى منطقة جوبير إلى الشرق من صنغي شمال إمارة كانو بإمارات الهوسا[٩٨]، أما الأسكيا محمد مربنكن فهو ابن إحدى المحظيات وتدعى مِنَ كِرَوْ[٩٩]، التي أهديت للأسكيا محمد من قبل أخيه عمر كمزاغ[١٠٠]، أما الأسكيا إسماعيل فكان ابن واحدة من محظيات الأسكيا محمد وهي مريم داب أو دابو Mariam Dâbo، وهي من قبائل الونقارة أحد فروع الماندنجو، والتي أسرها الأسكيا محمد الأول أثناء غزوه لمملكة مالي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م[١٠١]، أما والدة الأسكيا إسحاق الأول فكانت إحدى محظيات الأسكيا محمد وتدعى كَلْثُوم بَرْدَ، وهي من أهل دَرَمْ[١٠٢]، وقد اتخذها على أثر غزوه للمنطقة الغربية من مملكة صنغي، بينما كانت والدة الأسكيا داوود بن الأسكيا محمد واحدة من المحظيات وتدعى سَانَ فَارِيُو Sâna Fario، أما الأسكيا الحاج محمد بن الأسكيا داوود (٩٩٠-٩٩٥هـ/ ١٥٨٢-١٥٨٦م) فكان ابن

---

(٩٦) Hale T: Op.cit PP.97-98.

(٩٧) كعت: مصدر سابق، ص ٨١.

(98) Hama B: L'Histoire Traditionnelle d'un Peuple: Les Zarma-Songhay Presence Africaine Paris 1967 PP.43-44.

(٩٩) كعت: مصدر سابق، ص ٨١.

(١٠٠) Hama B: Op.cit PP.43-44.

(١٠١) كعت: مصدر سابق، ص ٨١؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٥.
Hale T: Scribe Op.cit PP. 104-105.

(١٠٢) كعت: مصدر سابق، ص ٨١.

إحدى المحظيات وتدعى مِنَ كَايَ Mina-Kâya[١٠٣]. وكانت أم الأسكيا محمد بان بن داوود (٩٩٥-٩٩٦هـ/ ١٥٨٦-١٥٨٨م) تدعى أَمَسَ كَارُ، والأسكيا إسحاق الثاني فأمه تدعى فاطمة بُصُ، والتي أسرت من القبائل الزغرانية[١٠٤].

لقد نتج عن كثرة اتخاذ المحظيات على هذا النحو، مئات الأبناء للأساكي من هذه المحظيات، وأصبح لدى هؤلاء الأبناء نتيجة كثرتهم وتعدد أصولهم مطامع في الوصول إلى السلطة، وهو ما أفرز صراعًا كبيرًا بين أبناء الأسكيا محمد الأول وأحفاده من أجل الوصول إلى السلطة، وهي مشكلة كان من الممكن تفاديها إذا التزم الأساكي بالتعاليم الإسلامية في الزواج، والإقلال من اتخاذ المحظيات من سبايا الحروب[١٠٥]، وقد ثبت أن هذا النظام كانت له عيوبه الخطيرة، لأنه وزع رابطة الدم بين عدد من الإخوة الذين تعددت أمهاتهم، وتفرقت أصولهم بين عدد من أقاليم المملكة، وهو ما أدى إلى كثرة عدد المطالبين بحقهم في السلطة وخلافة الأسكيا في الحكم، وأدت إلى التآمر، ووقوع الصراعات لتحقيق المكاسب الشخصية، وكثيرًا ما رافق الوصول إلى السلطة أحداث مؤسفة من القتل أو المذابح بين الورثة[١٠٦].

---

(١٠٣) المصدر السابق والصفحة.

Hale T: Op.cit PP. 107 110.

(١٠٤) كعت: مصدر سابق، ص ٨١.

(105) Hunwick J: Askia Al-Hajj Muhammad and His Successors: the Account of Al-Imam Al- Takruri Sudanic Africa Vol.1 1990 P.86.

(106) Shaw F: A Tropical Dependency On Outline Of The Ancient History Of The Western Soudan With An Account Of The Modern Settlement Of Northern Nigeria Printed By James Nisbet Co Limited London 1905 PP. 192-194.

على أي الأحوال كان من الأفضل للإماء اللاتي أصبحن محظيات لأسيادهن أن ينجبن ذكورًا ويصبحن أمهات أولاد، حتى يحظين بحريتهن، فقد سئل بعض فقهاء السودان الغربي عمن اشترى أمة ووطئها، وأتت بولدٍ، فهل يلحق الولد بأبيه أم لا؟ فأجاب هذا الفقيه بوجوب إلحاق الولد بأبيه، مستندًا على قول خليل في باب أمهات الأولاد، أنه إن أقر السيد بوطء أمته، فإن الولد يلحق بأبيه، وتعتق هذه الأمة وتصبح حرة(١٠٧). ومما يدل أيضًا على انتشار ظاهرة أمهات الأولاد وكثرة عددهن نتيجة الحرب، أن الأسكيا محمد الأول عندما استفتى الفقيه المغيلي (المتوفى عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) حول بعض أمور مملكته، أشار إلى أن سني علي كان يتسرى بمن شاء من النساء في جميع مملكته، هو وأتباعه من رجال الحكم والإدارة، وهو أمر استلزم سؤال الفقيه عن أحقية قيام الأسكيا بمحاربة أولئك الظلمة، واسترقاق أولادهم، وبيع أمهات أولادهم(١٠٨).

هكذا تأثرت وضعية المرأة وحياتها الخاصة بالحرب وآثارها، حيث استخدمت أحيانًا لفداء أهلها وقبيلتها من بطش جيش غازي أو بطش قبيلة أخرى، وهي مسألة عرضت على بعض الفقهاء بشأن من زوج ابنته الصغيرة من سلطان من سلاطين السودان لخوفه من السلطان المذكور(١٠٩). ولا تقف معاناة البنت التي تم تزويجها على هذا النحو عند هذا الحد، بل إنها كانت تلحق بها بعض الأضرار التي ذكرتها النوازل، منها أن الزوج كان ينقلها من موضع قبيلتها إلى حيث يسكن بعيدًا، وهنا لا تجد الزوجة من تشكو له في حالة سوء تصرف زوجها ولا من يرفع الظلم عنها، هذا بالإضافة إلى أنها كانت تعامل وكأنها أسيرة لأنها أخذت عنوة خشية القهر والغلبة(١١٠).

---

(١٠٧) الغلاوي: مصدر سابق، ج٢، ورقة ٤٠٧- ٤١١.

(١٠٨) المغيلي: أسئلة الأسقيا، ص ٣٧، ٣٨.

(١٠٩) المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١٤، ١٥.

(١١٠) الغلاوي: مصدر سابق، ج٢، ورقة ١٦.

وفي بعض الأحيان استخدم بعض الأساكي بناتهم كأسلوب لضمان ولاء قادة جيشهم، وموظفيهم ونائبيهم في الحكم، فقد قام الأسكيا محمد الأول بتزويج ابنته إلى مقشرن كوي أو حاكم طوارق مقشرن المدعو كِبِنَ نكَسِ ابن أخت أكيل ملك الطوارق، وكان يعتمد على مقشرن كي كثيرًا في غزواته. كما إن أسكيا محمد مربنكن عندما أراد أن يعتمد على بعض الموثوق فيهم في الإدارة، استدعى صديقه المدعو بير في رد إسماعيل وزوجه ابنته المسماة فَتِ، وأخذ عليه العهد بألا يخلع طاعته أبدًا، لأن الأسكيا مربنكن كان في حاجة لتأمين نفسه بالمقربين نتيجة للحرب على السلطة بينه وبين أبناء عمه الأسكيا محمد الأول(١١١). كما إن السعيدي أشار إلى أن الأسكيا داوود زوج الكثيرات من بناته إلى كبار جنده(١١٢).

هكذا عانت المرأة أشد المعاناة من الحرب وويلاتها، فلم تسلم من التعرض للقتل أحيانًا، والوقوع في الأسر أحيانًا أخرى، وما كان يتبع هذا الأسر من التسري بالنساء، واتخاذهن محظيات، كما استخدمت المرأة كوسيلة لحل النزاعات أحيانًا حيث أجبرت على الزواج من بعض المنتصرين، والسؤال الذي نطرحه: في ظل هذه المعاناة التي عاشتها المرأة نتيجة الحرب، ما هي الأضرار التي لحقت بالأطفال؟

٣- أثر الحرب على الطفل:

إذا كان الآباء والأمهات لم يسلموا من ويلات الحرب وآثارها المدمرة بالنسبة للأسرة، ما بين القتل، أو الوقوع في الأسر، فإنه من الطبيعي أن يعيش الأطفال مصيرًا مأساويًا، فنتيجة فقدان الأب، أو الأم، أو الاثنين معًا تصبح هناك شريحة من الأطفال الأيتام الذين كانوا يقبعون بعد فقد آبائهم

(١١١) السعيدي: مصدر سابق، ص ٨٣، ٨٧.
(١١٢) ملوك السودان أهل سنغي، ص ١٣٦.

وأمهاتهم في ذل الأسر. وبهذا أدت الحرب إلى يُتم بعض الأطفال، فأثناء الصراع بين الأسكيا إسحاق الثاني وأنصار أخيه بلمع محمد صادق الذين نازعوه السلطة، هددهم إسحاق قائلًا: "... إما أن تسلموا لنا أو يكون هذا اليوم آخر أيامكم في الدنيا يخرب الله فيها بيوتكم ويصيروا أولادكم فيها يتامى وأزواجكم أرامل..."(١١٣).

بيد أن أيدي المحاربين لم تكن تكتف بقتل الرجال والنساء، إذ لم تتورع عن قتل الأطفال والرضع أيضًا، بل تم الفتك بالأجنة في بطون أمهاتهم أحيانًا، مثلما حدث في حروب سني علي الذي أشيع عنه كما أشار الرواة الجريوت بأنه كان يقوم بقتل الجنين في بطن أمه دون رحمة(١١٤)، وبالغ سني علي في انتقامه حيث كان يأمر بإلقاء الطفل في المهراس ويأمر أمه أن تدقه وهو حي، ثم يطعمه للخيول(١١٥)، وأحيانًا كان يبقر بطن المرأة وهي حية، ويقتل جنينها(١١٦). وتشير إحدى كتب النوازل إلى أن سني علي استحل دماء المسلمين، فقتل النساء والصبيان والرضع(١١٧).

وبالإضافة إلى التعرض للقتل، لم يسلم الأطفال من الوقوع في الأسر أحيانًا، ففي عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م عندما غزا ملك الموشي مدينة ولاتة بعد أن فرض حصاره على هذه المدينة لمدة شهر، وبعد أن ضيق ملك الموشي على أهل ولاتة بالحصار، وقع القتال بينهم، وأخذ ملك الموشي الأطفال أسرى، وارتحل بهم من ولاتة، فتبعه أهلها بقيادة عمر بن محمد نض، وقاتلوا ملك

---

(١١٣) كعت: مصدر سابق، ص ١٣٤.

(١١٤) Hale T: Op.cit PP.76-77.

(١١٥) يرجح الباحث أن هذه الإشارة تعد من قبيل التهم والمبالغات التي قيلت في شأن سني علي، لاسيما أن الخيول لا تستسيغ أكل اللحوم.

(١١٦) كعت: مصدر سابق، ص ٤٣، ٤٤.

(١١٧) المغيلي: أسئلة الأسقيا، ص ٣٧.

الموشي وأنقذوا الأطفال منه[١١٨]. وتشير هذه الحادثة إلى مدى الضرر الذي كان يلحق بالأطفال نتيجة الحرب.

وبالإضافة إلى هذه الأضرار التي لحقت بالأطفال نتيجة الحرب، فقد كانوا عرضة للبيع في أسواق الرقيق بعد وقوعهم في الأسر، فقد أشار الوزان (المتوفى عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) إلى أن الأسكيا محمد الأول كان يحارب الأعداء من جيرانه، لاسيما الذين امتنعوا عن أداء الخراج إليه، وأنه كان إذا انتصر باع في تنبكت كل من أسره في القتال، حتى الأطفال[١١٩]، ومن هنا تتجلى آثار الحرب في تعرض الأطفال للاسترقاق. ولعل ما يلفت الانتباه أن وقوع الأطفال في السبي كان مدعاة لفخر المنتصرين، وهو ما نستشفه مما أورده السعيدي بشأن انتصار الأسكيا محمد الأول على نعسر ملك الموشي عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، حيث امتدح هذا الأسكيا لأنه "... سبا ذراريهم... "[١٢٠]. ولنفس السبب امتدح كعت أسكيا الحاج محمد بن داوود الذي ما إن انتصر على أهل وكد في عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م، حتى "... سبا ذراريهم..."[١٢١].

هكذا أفضت الحروب إلى تأثيرات بالغة عانت منها الأسرة السودانية، بأطرافها المختلفة، رجالًا، ونساءً، وأطفالًا، على نحو تسبب في التفكك الأسري، وطبع حياة الأسرة السودانية بالترقب والقلق إزاء المصير المحتوم سواء بالقتل أم الأسر، لكن محن الحروب ومشكلاتها لم تكن تقف عند ذلكم الحد.

---

(١١٨) السعيدي: مصدر سابق، ص ٦٩.
(١١٩) الوزان: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٦.
(١٢٠) ملوك السودان أهل سنغي، ص ٦٩.
(١٢١) تاريخ الفتاش، ص ١١٩.

رابعًا- المحن الاجتماعية للحرب:

رافقت الحرب مجموعة من المحن والمشكلات الاجتماعية، حيث ألقت بظلالها على السكان نتيجة ما تعرضوا له من محن أثناء الحصار العسكري، بالإضافة إلى محن ترويع السكان والتنكيل بهم، ونهب الأموال، فضلًا عن تخريب العمران، وهي محن بالغة الأثر عانى منها المجتمع السوداني.

١- محن الحصار العسكري:

كان فرض الحصار العسكري حول بعض المدن أحد الوسائل التي لجأت إليها الجيوش في ممالك السودان الغربي، بهدف السيطرة على تلك المدن، بعد إجبار أهلها على الاستسلام، وكان الحصار يستهدف قطع الإمدادت الغذائية عن الأهالي، وتضييق الخناق عليهم بغية سرعة استسلامهم، وهو ما أضاف إلى معاناة السكان ومحنهم، محنة جديدة بسبب الحصار العسكري الذي كان يطول أحيانًا، فلم يستول سنى علي على مدينة جنى عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م إلا بعد حصار استغرق سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وطال الحصار حتى وقعت المجاعة في أهلها ونقص قوتهم(١٢٢). وقد أصابت المجاعة المحاصَرين كما أصابت القائمين بالحصار، لكن في الوقت الذي بلغ فيه الأخيرون النهاية من تحملهم وكانوا على وشك الانسحاب استسلم أهل جني بعد أن بلغ بهم الجوع والقحط منتهاه. ولنا أن ندرك أيضًا مدى تأثيرات الحرب اقتصاديًا واجتماعيًا ونفسيًا حينما يذكر كعت أن سنى علي قاتل كنبر حاكم جنى ستة أشهر، وأنه حاصر المدينة بأربعمائة سفينة لئلا يخرج خارج أو يدخل داخل؛ فبطبيعة الحال فإن قتالًا يدوم لستة أشهر ومدينة تحاصر بهذه الطريقة لابد أن تتأثر وتعاني من أزمات اقتصادية واجتماعية(١٢٣).

---

(١٢٢) السعيدي: مصدر سابق، ص ١٤.

(١٢٣) تاريخ الفتاش، ص ٥٠.

ولكي يسقط ملك الموشي مدينة ولاتة في الشمال الغربي من مملكة صنغي، قام في عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م بضرب الحصار حول المدينة قاطعًا عنها كل سبل الإمداد لمدة شهر كامل، فاضطر أهل ولاتة إلى الاستسلام، فدخل الموشي المدينة ونهبوها ثم انسحبوا حاملين معهم عددًا كبيرًا من النساء والأطفال وقدرًا هائلًا من الغنائم، بعد أن سمعوا بتحرك سني علي بجيشه لاسترداد ولاتة من أيديهم، وهو الأمر الذي جعل الموشي يبالغون في نهب السكان، وحمل أعداد كبيرة من الأسرى، قبل رحيلهم عن المدينة(١٢٤).

وفي حربه ضد أهل أنكند عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م فرض سني علي حصاره عليهم بمائتي سفينة، فلم يستطع أحد الدخول أو الخروج من المدينة، حتى اضطر أهلها إلى التسليم بعد أن أعياهم الحصار، ونقصت أقواتهم، وقطعت عنهم الإمدادات، فدخل سني المدينة وأسر بعض قبائلها، ومنها قبائل صنغي، وجم كري، والزناجية(١٢٥).

وبهذا عانى أهالي المدن السودانية من الحصار العسكري الذي كان يلجأ إليه بعض الغزاة أحيانًا بهدف السيطرة على تلك المدن، التي كانت ما إن سقطت إلا وتعرض أهلها لمحن أخرى تتمثل في ترويع هؤلاء الأهالي والتنكيل بهم.

٢- محن ترويع السكان، والتنكيل بهم:

لقد أحدثت الحروب التي خاضتها ممالك السودان الغربي أو تلك التي تعرضت لها، حالة من الرعب والخوف، وروع السكان عند سماعهم بقدوم جيش ما لغزو مدنهم.

---

(١٢٤) كعت: مصدر سابق، ص ٤٥؛ السعيدي: مصدر سابق، ص٧٠.

(١٢٥) كعت: مصدر سابق، ص ١٤٠، ١٤١.

فقد أثارت الحرب ونتائجها الذعر في نفوس الأهالي، فعندما شهدت مملكة مالي عددًا من النزاعات الداخلية عقب وفاة منسا موسى عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وانفصلت عنها بعض المقاطعات، في الوقت الذي لم تقو فيه المملكة على ردع القبائل المخربة، تهيأت الفرصة لهذه القبائل لاسيما الموشى لكي تعيث فسادًا في المنطقة وبالتالي زاد الشعور بالخوف وانعدام الأمن في منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر مثلما حدث في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م(١٢٦).

كما أحدثت الحرب حالة من الخوف والرعب لدى أهالي مملكة صنغي، فعندما كان سنى علي يحاصر مدينة جني عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م أتته الأخبار بأن أهل تنبكت يهربون، وأن أهل ولاتة رجعوا إلى مدينتهم، ورجع كل قوم إلى موطنهم الأصلي، والمرجح أن هذه الأقوام كانت تعمل في التجارة في تنبكت، وبعضهم عمل في حرف وصناعات مختلفة فلما علموا بقدوم سنى علي إلى تنبكت فروا هاربين خوفًا من البطش بهم، ولقد صدقت توقعات السكان حينما أرسل سنى علي رسوله إلى تنبكت مناديًا بألا يبيت أحد ليلته إلا في موضع يقال له هوكي وراء البحر، وأن من يتخلف عن تنفيذ هذا سيذبحه سني علي بسيفه، ولنأخذ تعبير كعت عن حالة الذعر والخوف التي أصابت السكان بقوله: "... فما كان إلا كلمح البصر حتى رحلوا بأجمعهم ومنهم من لم يحمل عشاء ليلته، وبعضهم لم يأخذ فراشًا، ومنهم ماشٍ وله خيل في داره تركه توهمًا منه أن ربط السرج أمره يطول، وهكذا لم يبق بالمدينة سوى الضعفاء وكبار السن، وفر الجميع هاربين حتى إن بعضهم لم يغلق باب بيته ولم يبق إلا المرضى لم يجدوا حاملًا والعمى لا

(١٢٦) السعيدي: مصدر سابق، ص ٨، ٩.
Levtzion N: Ancient Ghana P. 83.

قائد له..."[١٢٧]. ويعبر هذا النص عن حالة الفزع والرعب التي أصابت أهل تنبكت، وتلك المآسي التي كانت تسببها الحرب من فقدان السكان للأمن، بالإضافة إلى فقدانهم أمتعتهم وممتلكاتهم.

ونتيجة لتلك الأحداث المروعة التي رافقت غزوات سني علي، ولأن فترة حكمه كلها شهدت الكثير من الحروب، وما تبعها من آثار على النحو الذي بيناه، كان من الطبيعي أن يصاب أهل مالي وصنغي وملحقاتهما بالضرر والضجر والملل لأن بأسه اشتد على الناس وزاد ضرره، ولذلك "... يئس الناس من طول دولته التي ظنوا بأنها لا تفنى ولا تنتهي..."[١٢٨]. وهو أمر يشير إلى أن الحرب تركت مردودات نفسية سلبية على المجتمع، فمع كثرة الحروب شعر أبناء المجتمع بالقلق والاضطراب وعدم الأمان، ولذلك لا تتفق الحرب غالبًا مع طبيعة البشر التي تحب الاستقرار، وتكره ما من شأنه أن يعرقل هذا الاستقرار أو يسلب الإنسان أمنه، فالسعيدي يقول عن الأسكيا مربنكن: "... والسلطان الأسعد مولع بالغزو والجهاد وأكثر منها جدًا حتى مل منه سغي (يقصد أهل صنغي) وكرهوه... "[١٢٩].

وهناك إشارات أخرى بينت أثر الحرب في ترويع السكان الآمنين، وسلبهم هذا الأمان، فعند قدوم الجيش السعدي لغزو صنغي عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م، أصيب السكان بالرعب، واضطروا إلى عبور نهر النيجر بحثًا عن النجاة بأرواحهم؛ فغرق الكثيرون منهم نتيجة الزحام عند عبور النهر[١٣٠].

---

(١٢٧) تاريخ الفتاش، ص ٤٨-٤٩.

(١٢٨) المصدر السابق، ص ٥١.

(١٢٩) ملوك السودان أهل سنغي، ص ٨٨.

(١٣٠) كعت: مصدر سابق، ص ١٥٣-١٥٥؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ١٤٠-١٤٥.

ومما يبرهن على شعور الأهالي بالرعب، أنه نتيجة سماع السكان بقدوم الجيش السعدي، وقفت إحدى النساء تحمل ذهبًا كثيرًا، وتتوسل لعلها تجد من ينقلها وأبنائها من مدينة جاو إلى الجهة الثانية من ضفة نهر النيجر، حتى تجد الأمان لها ولأبنائها بعيدًا عن ويلات الحرب، وظلت على هذه الحال تنادي أصحاب السفن وقد اشتد بكاؤها، فلم تجد من يلقي لها بالًا نتيجة لحالة الذعر التي أصابت الناس، وخوفهم من المصير المأساوي الذي ينتج عن الحرب(١٣١).

وأثناء المعركة أصيب أهل صنغي بحالة من الذعر، ففروا من أرض المعركة يلازمهم الرعب بعد أن استحكمت في رقابهم سيوف جؤدر وجنده، حتى كان السودان ينادون "... نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه...". وتقدم جؤدر إلى تنبكت واستولى على ما فيها من الأموال والمتاع، وامتدت عساكره " تعبث وتفسد وتسبي وتغنم "(١٣٢).

ولم تقف معاناة السكان عند مجرد الذعر والترويع والاضطراب، بل إن الحرب أدت إلى حالات كثيرة من التعذيب والتنكيل بالسكان، فنسب إلى سنى علي قتله للفقهاء، وأنه هدم كثيرًا من القرى التي حاربها وعذب أهالي تلك القرى بالنيران وبألوان من العذاب شتى، فتارة كان يحرق بالنار، وتارة يقتل بها(١٣٣)، كما إنه عاقب البعض بقطع الأنف واليدين(١٣٤). وكان

(١٣١) كعت: مصدر سابق، ص ١٥١.
(١٣٢) الناصري: مصدر سابق، ج ٥، ص ١٢٥.
(١٣٣) كعت: مصدر سابق، ص ٤٣.
(١٣٤) المغيلي: أسئلة الأسقيا، ص ٣٧.

من بين أنواع العقاب والتنكيل الذي أنزله سني علي بأهالي المدن المهزومة أنه كان يبني بيتًا على الناس وهم أحياء، ثم يهدمه ليموتوا تحته[١٣٥].

وعندما حقق الأسكيا إسحاق الثاني النصر على جيش أخيه بلمع صادق، صب جم غضبه على الأهالي الذين أيدوا أخيه، فأسر منهم الكثيرين، وقتل وضرب آخرين، وبلغ من تنكيله بهم أن البعض ماتوا من شدة الضرب، وقام إسحاق بإلقاء البعض في السجن[١٣٦]. وهو ما يؤكد التنكيل بالسكان وتعذيبهم على أثر بعض الحروب، فضلًا عن نهب أموالهم كجزء من الغنيمة المستهدفة.

٣- الحرب ونهب الأموال:

لم يقف تأثير الحرب على الأهالي عند حد تخريب أنشطتهم الحرفية، وإرباكها، وإلحاق الكثير من الضرر بالحرفيين والصناع، فقد عمدت الجيوش الغازية أحيانًا إلى سلب الناس أموالهم، ومصادرة ممتلكاتهم التي كانت تعينهم في معيشتهم، فبالرغم من ندرة الإشارات الخاصة بنهب الجيش للأموال ومصادرة الممتلكات في عصر مملكة مالي، إلا أنه ليس من قبيل المبالغة أو التخمين أن نؤكد أن الحرب رافقها مثل هذه الأعمال من التعدي على الأموال والممتلكات، وانتزاع الثروات بقوة السلاح، وهناك إحدى الإشارات تبين أن واحدًا من ملوك مالي بعدما خاض حربًا ضد ثلاث قبائل وثنية كانت تنتمي لقبائل البمبارا، قام بسبي ذراريهم ومصادرة جميع أموالهم[١٣٧].

---

(١٣٥) كعت: مصدر سابق، ص ٤٣، ٤٤.

(١٣٦) المصدر السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.

(١٣٧) المصدر السابق، ص ٥٥- ٥٨.

وقد أوردت المصادر بعض الإشارات حول التعدي على الأموال ونهبها في عصر مملكة صنغي، ففي غزواته، نهب سني علي الأموال الكثيرة(١٣٨)، ولذلك فحين دافع كعت عن سياسة أسكيا محمد الأول، وانتقد سني علي، كشف عن التجاوزات التي ارتكبها جيش سني علي تجاه الرعية، حيث رد الأسكيا محمد بعد وصوله إلى السلطة، كل مال غصبه سني علي إلى أصحابه. كما إن أسكيا الحاج محمد بن داوود عند غزوه لأهل وكد في عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م أخذ جميع أموالهم(١٣٩).

وعند قدوم الجيش السعدي عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م، أمر الأسكيا إسحاق الثاني سكان مدينة جاو، وسكان مدينة تنبكت بالرحيل عنهما، مما أدى إلى تزاحم السكان رغبة في ترك هاتين المدينتين قبل وصول الجيش السعدي، وهو الأمر الذي اضطر معه الكثيرون إلى ترك الكثير من أموالهم وممتلكاتهم والبحث عن النجاة بأرواحهم، وفي هذا يقول السعيدي: "... وشرعوا في الخروج واقتطاع البحر في القوارب بالمشقة والازدحام... وضاع من الأموال ما لا يحصيه إلا الله..."(١٤٠). واتخذت الحملة السعدية على صنغي من مدينة تنبكت عاصمة لحكم المغاربة الذين باشروا السلب والنهب منذ اليوم الأول، كي يوافوا المنصور بأكثر ما يمكن من الذهب والعبيد، وهو الأمر الذي دفع علماء تنبكت إلى إنكار هذه الأعمال(١٤١). وفي ظل حملة السلب والنهب التي أطلقها الجنود المغاربة في مدينة تنبكت،

---

(١٣٨) المغيلي: أسئلة الأسقيا، ص ٣٧.

(١٣٩) تاريخ الفتاش، ص ٥٩، ١١٩.

(١٤٠) المصدر السابق، ص ١٥٣-١٥٥؛ السعيدي: مصدر سابق، ص ١٤٠-١٤١.

(١٤١) كعت: مصدر سابق، ص ١٥٦-١٥٧.

التجأ الأهالي إلى بيت القاضي، وأودعوا فيه كل متعلقاتهم التي يخشون كانوا نهبها(١٤٢).

أما عن الأسلاب التي وصلت للسلطان السعدي فيشير صاحب تاريخ الدولة السعدية إلى أنها بلغت "... اثني عشر مائة مملوك بين الجواري والغلمان، وأربعون حملًا من التبر، وأربعة سروج ذهب، وأحمال كثيرة من العاج واليانور وكور غالية والقطوط الغالية وذخائر السودان فتذخر مولاى أحمد الذهبي من ذلك وقوى ملكه وبقيت جباية السودان تأتيه في كل سنة..."(١٤٣).

من هنا يمكن القول بأن الحرب تسببت في جملة من المحن والأضرار التي عانى منها الأهالي نتيجة الحصار العسكري، ثم ما تبع هذا الحصار من ترويع للآمنين، وتعذيبهم، ونهب أموالهم.

---

(١٤٢) المصدر السابق، ص ١٥٧

Hunwick J: Ahmed Baba and The Moroccan Invasion of the Sudan (1591) Journal of The Historical Society of Nigeria No. II Ibadan 1962 P. 322.

(١٤٣) مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ١٩٩٤، ص ٦٨.

خـــاتمـة

تبين من خلال هذا البحث أن الحرب أضرت بالبنية الاجتماعية لممالك السودان الغربي أشد الضرر، وطبعت حياة السكان بالآلام والبؤس، بما فرضته عليهم من المحن، فالحرب أحدثت تغيرات واضحة بالنسبة لعناصر المجتمع، من خلال ما وجهته من ضربات موجعة لتماسك القبيلة السودانية التي شكلت أساس البناء الاجتماعي للممالك السودانية، فضلًا عما أحدثته الحرب من خلخلة للتركيبة السكانية بمقتل الكثيرين الذين راحوا ضحية الحروب الكثيرة، ثم أحدثت الحرب بعض التغيرات على الصعيد الطبقي بما أدت إليه من تمييز بين شرائح وأخرى، فضلًا عن ظهور شرائح جديدة في المجتمع كشريحة أسرى الحرب والتي حددت هبوط البعض إلى أسفل السلم الاجتماعي، وارتقاء آخرين في مصاف الطبقة العليا ومن ارتبط بها، كما كان للحرب آثار بالغة على الأسرة السودانية فلم يسلم الآباء والأمهات والأطفال من القتل، أو الوقوع في الأسر، وهو مصير أفضى إلى بروز شريحة من الأرامل والأيتام، فضلًا عما عاناه أبناء المجتمع السوداني من محن الحروب والتي تمثل أهمها في محن الحصار العسكري، ومحن ترويع الناس والتنكيل بهم، ونهب أموالهم في أعقاب الغزوات.